الدين ونظام القيم

مقاربة لاهوتية أخلاقية

الأب إدغار الهيبي

الكلمات المفتاحية: الدين، الكاثوليكية، القيم، الحياة الخُلقية، خُلقية الفضائل، خُلقية الفرائض.

"أشرق علينا بنور وجهك"[1]. بهذه العبارة من صلاة المزامير أراد قداسة البابا يوحنا بولس الثاني افتتاح رسالته البابوية، " تألّق الحقيقة "، وهي ترمي إلى الإحاطة في موضوع أسس تعليم الكنيسة في الأخلاق. وقد اعتبر قداسته، في مطالعته لتقليد الكنيسة ومحاولة تأوينه، أن وجه الله، المنعكس في أعماله كلها، هو حقيقة تنوّر العقل وترسم للإنسان إطار حريته الأصيلة، ألا وهو معرفة الله ومحبته[2].

الحقيقة والحرية، المعرفة والعقل، المحبة والأعمال، ها هي العناصر الأساسية لبنيان هيكيلية الأخلاق الإنسانية، دينيّة كانت أم غير دينيّة، مسيحيّة أم غير مسيحيّة.

بهذه المسلّمة المبدئية، لا ندّعي تقديم أي جديد لأي روح باحث أو فكر مطّلع. لكن، ما المميّز إذًا في ربط أسس الأخلاق المسيحية – بحسب نظرة الكنيسة الكاثوليكية على الأقل – بتألّق حقيقة الله؟ وما العلاقة بين معرفة الله ومحبته من ناحية، وحياة الحرية الحقيقية المسؤولة تجاه الإنسان والمجتمع البشري والخليقة بأسرها، من ناحية أخرى؟ ما العلاقة إذًا بين الدين والإيمان والعقيدة، من ناحية، والأخلاق والنظام القيمي للأعمال، من ناحية أخرى؟ وكيف يتجلى وجه الله – أساس الدين وغايته – من خلال الشريعة والنظم الأخلاقية الأساسية بالنسبة للإيمان المسيحي؟

انطلاقًا من هذه الإشكالية التي تتمحور حول العلاقة بين الدين وصياغة الأطر القيمية الأخلاقية، نتوقف في مداخلتنا هذه عند بعض العناوين الكبرى فقط لما يمكن قراءته مفصلًا في المقال المطبوع بأكمله. كما أنّنا سننهي كلامنا بعرض بياني للإشكالية التي نتناولها.

أما العناوين فهي:

1. **تحديد ما دعوتموه في إطار هذه الحلقة البحثية بالنظام القيمي، أي اللاهوت الخلقي بما يخص الإيمان المسيحي.**
2. **الأخلاق المسيحية والدعوة المسيحية الأساسية.**

---

(1) مزمار/ 4، 7.
(2) عدد/ 1.

3 معرفة الله والأخلاق المسيحية؛ أي الدين والقيم الأخلاقية.

3-1- الله الخالق؛ أي الهوية الإنسانية ومحدوديتها.

3-2- الله صاحب المبادرة للعهد؛ أي الحرية والمسؤولية.

3-3- الله مبدأ العلاقة وغايتها؛ أي الحياة كغاية للشريعة.

3-4- حافظ العلاقة؛ أي الشريعة في خدمة الحرية.

3-5- الآب يرسل الابن؛ أي علاقة الحرية والحقيقة بحياة الآب.

3-6- يسوع يكشف الخالق والمحرر (libérateur) أبًا.

4 الطوبيات كقاعدة مثلى للدعوة الخلقية المسيحية.

5 الآب يرسل الروح أي الفضائل كطريق لرؤية وجه الآب.

6 موقف الكنيسة الكاثوليكية من الأنظمة الخلقية غير المسيحية.

1. تحديد اللاهوت الخلقي: *اللاهوت الخلقي والبناء اللاهوتي الشامل*

إن اللاهوت الخلقي والأدبي، كالفلسفة الخلقية، يهدف لإقامة المقاييس والمبادئ اللازمة لتوجيه وضبط التصرفات والأفعال البشرية نحو الخير، والتشديد على تلافي الشر. وهو يعتمد بذلك على منهجية عقلانية مرفقة، بشكل جذري، بالإيمان. فإذا كان اللاهوت كناية عن علم موضوعه معرفة الله، والخليقة من خلال العقل والإيمان متلازمين، وبذلك يكوّن جسمًا واحدًا متكاملًا متعدد الجوانب منها: العقائدي والكتابي والأدبي والرعائي والروحي، إلخ؛ فإن اللاهوت الخلقي هو القسم الذي يهتم بدراسة الأفعال البشرية كيما يوجهها، بحسب ما يناسب رؤية الله-المحبة، أساس كل سعادة كاملة وبغية كل إنسان يبحث عن الحياة.

يساعدنا هذا التحديد على التيقّن للأبعاد الأساسية للحياة الخلقية فإذا بها:

أ- جزء لا يتجزأ من الجسم الديني واللاهوتي بكامله.

ب- تعتبر الواقع البشري الوجودي، فتأخذ بأهمية التيقّذ لكل ما يختبره الإنسان عبر مسيرته الفكرية والعلمية والنفسية والبيولوجية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية إلخ.، وهي تجمع بذلك، وبطريقة جدليّة، المنهجية الاستقرائية المنطلقة من استطلاع الواقع (Méthode inductive) والمنهجية الاستنتاجية المملوءة من مجموعة العقائد والحقائق الإيمانية الدينية (Méthode déductive).

ج- تخلق وتطوّر آلية متكاملة من المبادئ العامة إلى القواعد الأساسية إلى القوانين العملية، كما تدلّ وتحافظ على الطرق الصحيحة المؤدية إلى الاتحاد بالله وصون علاقة الإنسان بكليته مع من هو علّة وغاية وجوده.

عمدنا إلى تفصيل جوانب الحياة الخلقية واللاهوت الخلقي هادفين بذلك إلى توضيح نقطتين:

أ- أولًا، لا يمكننا التكلم عن اللاهوت الخلقي؛ أي عن نظام القيم، بحصره بمجموعات من القيم والمبادئ والقوانين إذ نسير بذلك خطر تحويله إلى مجموعة إلزامات وواجبات خارجية تكبّل مسيرة الإنسان الحر، بينما ننسى الدعوة

الأساسية لهذا الجزء من اللاهوت، ألا وهي تربية الضمائر وتنمية الإنسان المؤمن بحسب حرية أبناء الله[3] .

ب- ينتج عن هذه الملاحظة، وهذه هي النقطة الثانية، أننا لا نستطيع بحث الخطوط الرئيسية للاهوت الخلقي، إلا بالانطلاق من الإطار الديني اللاهوتي العام – كتابيًا وعقائديًا وروحيًا وتقليديًا – حيث يُدعى الإنسان المؤمن؛ لتجسيد أفعاله وتصرفاته بحسب إيمانه ومقوماته.

ففي هذا السياق يندرج بحثنا في العلاقة بين الدين والقيم الأخلاقية. وبالتالي لن ندخل في التفاصيل المتعلقة بالتطبيقات العملية الخاصة بمجالات وميادين الأعمال البشرية كافة، وهذا ما يُدعى باللاهوت الخلقي الخصوصي (théologie morale spéciale)، إنما نكتفي بالتركيز على ما نسميه باللاهوت الخلقي الأساسي (théologie morale fondamentale).

2. الأخلاق المسيحية والدعوة المسيحية الأساسية

قبل الولوج في تأمل حقيقة الله التي تتجلى وتنكشف بحسب الإيمان المسيحي، نود التكلم عن حرية الأخلاق المسيحية بحد ذاتها. في هذا السياق يمكننا الانطلاق بالقول أن الأخلاق المسيحية هي بأساسها دينيّة وحوارية. إنها دينيّة؛ أي إنها بطبيعتها دَين على الإنسان بالجواب على من سبق وأخذ المبادرة، ودعى الإنسان للمشاركة بالحياة الإلهية. وهي حواريّة، لأن الدعوة والجواب يشكلان حوارًا وجوديا وجدانيا كيانيا لا بد منه.

إن الأخلاق المسيحية تشكل إذا عنصرًا أساسيًا من عناصر الجواب على دعوة الله الآب، عبر يسوع المسيح والروح القدس. هذه المبادرة الإلهية المطلقة في التدبير الخلاصي تظهر بوضوح منذ العهد القديم حيث يبرم الرب عهدًا مع مختاريه من نوح إلى إبراهيم إلى موسى، إلخ. وبهذا المعنى، تُعتبر الشريعة الموسوية إطارًا للجواب المنتظر من الإنسان للرب المخلص. ويأتي العهد الجديد، كيما يحدد أكثر فأكثر معنى العلاقة بين الإنسان والله، فإذا بها دعوة إلى تحقيق ملكوت الله؛ أي الاعتراف بملكية الله الوحيدة[4] على حياة الإنسان من ناحية، وهذا هو الدين، وبتجسيد هذا الاعتراف الإيماني من خلال الأعمال الواجبة بحسب اتّباع يسوع المسيح من ناحية أخرى، وهذه هي الأخلاق بنظمها القيمية والمبادئية.

---

[3] روم/ 8-21.
[4] متى/ 6، 10.

هـذا يعـني، ولهـذا الأمـر غايـة في الأهميـة، أن الأخلاقيـة المسـيحية لا يمكـن أن تنحصـر بـأي نظـام قـانوني منغلـق مهمـا عظـم شـأنه. وبـذلك لا تنحصـر الحيـاة الخلقيـة بشـريعة مكتوبـة إنمـا بـدعوة مفتوحـة إلى القداسـة عـبّرت عنهـا جذريـة العهـد الجديـد مـن خـلال سلسـلة الطوبيـات (التطوبيـات) حيـث تظهـر عظـم الدعوة الإنسانية في انجذابها نحو ما هو أكبر وأسمى منها: أي تحقيق الملكوت[5] .

هـذه الجذريـة الإنجيليـة تؤكـد علـى أن الحيـاة الخلقيـة هـي ديـن أولا وآخـرًا. أولًا، بحيـث أن لا بدايـة خلقيـة مسـيحية مـن دون العطايـا الإلهيـة، لا سـيما فضـائل الإيمـان والرجـاء والمحبـة، إذ إنهـا تشـكّل الـنعم الأساسـية الضـرورية للغـوص في معرفـة الله وشـريعته الأزليـة. وآخـرًا، لأنـه لـيس فقـط بالأعمـال المطابقـة لإرادة الآب يسـتطيع الإنسـان الـدخول في شـراكة الملكـوت، بـل خاصـة بفعـل الفـداء المجـاني الواهـب الغفران لكل إنسان ولكل خاطئ.

فعلينـا الآن، وعلـى ضـوء الـربط الجـوهري القـائم بـين جوانـب الحكمـة الدينيـة اللاهويتـة كافـة، مستحضـرين كـل هـذه الحقـائق الإيمانيـة الآنـف ذكرهـا، أن نوجـه بحثنـا علـى العلاقـة الجوهريـة بـين العقائـد الدينية الثابتة ومسيرة بنيان الهيكلية الأساسية لنظام القيم.

3. معرفة الله والأخلاق المسيحية؛ أي الدين والقيم الأخلاقية

3-1- الله الخالق؛ أي الهوية الإنسانية ومحدوديتها

يعـترف المـؤمن المسـيحي مـن خـلال الاعـتراف بـالله الخـالق بأسـبقية الله في كـل شـيء في الوجـود. فـإن الله الكـائن منـذ الأزل قـد خلـق الكـون، بفعـل محبـة ومجانيّـة مطلقـة، كمـا قـد خلـق الإنسـان علـى صورته كمثاله. ينتج عن هذا السر المسيحي حقائق خلقيّة أربع:

1- إنّ كرامـة الإنسـان، كـلّ إنسـان، مبنيّـة جـذريّا علـى أنّـه خُلـق علـى صـورة الله كمثالـه[6] وليسـت رهنًـا بأعمالـه الصـالحة أم الطالحـة. الإنسـان هـو ثمـرة حـب الخـالق، ووجـوده نعمـة مجانيّـة يـدعى من خلالها للدخول في علاقة العهد مع خالقه ومبدعه.

2- لـيس الإنسـان مرتبطًـا بكينونتـه بـالله فقـط، بـل ينتمـي أيضًـا إلى الخليقـة بأجمعهـا: نعـني الكـون؛ أي الطبيعـة بمعناهـا الكوسمولـوجي (cosmique) . فبـولادة الإنسـان مـن تـراب الأرض المنفـوخ بنفس الله نعي أهميّة التواضع والمسؤوليّة على السواء.

---

[5] متى/ 5.
[6] متى/ 1، 27.

3- وهنا استنتاج مباشر لما سبق، أن الإنسان مشارك في العناية الالهية، إذ أن له السلطان على ملء الأرض واخضاعها[7]. لكن هذه المشاركة تلزمه ليس فقط بالسيطرة على مكنوناتها بحسب ما أعطي من مواهب ومقدرات، إنما أيضًا بالحفاظ عليها كي يساهم بذلك بتمام دعوة الخليقة. على هذا الأساس، لا بد له من ان يمارس سيادته على الكائنات أجمع – بما فيه ذاته – دون التنكر لحقيقة أوليّة، وهي أنه ليس بالسيد المطلق.

4- إن الاعتراف بالخالق يعني أيضًا الاعتراف بأنه خلق كل شيء بحسب شريعته الازلية، وهي التي تتجلى إن في الشريعة الموحاة (loi révélée)، وهي تُكشف للايمان، وإن في الشريعة الطبيعية (loi naturelle) وهي تُكشف للعقل.

3-3- الله مبدأ العلاقة وغايتها أي الحياة كغاية للشريعة

في انسجام وثيق مع دعوة الخلق، يكلمنا الكاتب الملهم في سفر ثنية الاشتراع من كتب العهد القديم عن مبادرة الله المجانية إذ يقول:

" أنظر! إني قد جعلت اليوم أمامك الحياة والخير، والموت والشر، إذا سمعت إلى وصايا الرب إلهك التي أنا آمرك بها اليوم، محبًا الرب إلهك وسائرًا في سبله وحافظًا وصاياه وفرائضه وأحكامه، تحيا وتكثر ويباركك الرب الهك في الأرض التي انت داخل اليها لترثها (...) فاختر الحياة لكي تحيا أنت ونسلك، محبًا الرب الهك وسامعًا لصوته متعلقًا به (...) "[8].

إن العلاقة المعروضة من قبل الله، إنما هي دعوة الى المشاركة في الخير فالحياة بعيدًا عن الشر فالموت. فأي إنسان لا يبحث عن معنى لحياته وأي امرئ لا ينشد السعادة والخير والحياة؟!

يكمن جوهر الحياة الخلقية إذًا في الدخول في علاقة حياة وخير مع مبدأ الخير والحياة؛ أي في علاقة دينية. كل ذلك في إطار حرية أصيلة تجسدت بالعرض المجاني. واحترامًا لهذه الحرية لا بد للإنسان من أخذ موقف: القبول أم الرفض. هذا ما يدعوه اللاهوت الخلقي " القرار الأساسي". أنقبل العلاقة مع الله أم نرفضها؟ أننشد الحياة والخير أم الموت والشر؟ بالطبع إذا ما اخترنا، علينا الاعتراف بارتباطنا الجذري بمن أخذ المبادرة، فأعطانا الحياة والحرية على السواء. وعلينا بالتالي الالتزام بما لهذا الارتباط من مفاعيل عملية في تصرفاتنا وفي أفعالنا. وهنا فقط يندرج دور الناموس والنظم القيميّة، وصايا وفرائض وأحكامًا.

---

[7] متى/ 1، 28.
[8] متى/ 30، 15- 20.

3-4- حافظ العلاقة؛ أي الشريعة في خدمة الحرية وليس لقمعها

الله هو إذًا، ليس فقط مبدأ الحياة وواهبها، إنما أيضًا واضع الشروط المناسبة؛ للحفاظ على جوهر العلاقة المحيية ومفاعيلها. في هذا الإطار يأتي الناموس نابعًا من معنى العلاقة نفسها؛ أي من داخلها، ولا يمكن الاكتفاء به باعتباره كأداة خارجية تُفرض على الإنسان؛ لتحقيق رغبات الله. بذلك نفقه أن الشريعة في الحياة الخلقية تشغل مركزًا جوهريًا في العلاقة نفسها.

نختم هذه الفقرة بالتركيز على أن الدعوة المجانية، موضوع عهد الله، هي سؤال يُطرح على كل انسان – وخاصة على المؤمن – وعليه الجواب. هكذا تُعتبر الحالة الإنسانية حالة "مسؤولة" (على وزن "مفعول" نسبة للسؤال) عن جواب ذو حدين:

1. الجواب للدخول (أو عدم الدخول) في شراكة مع الله.

2. الجواب بالشهادة أمام جميع بني البشر، وأمام كل الشعوب كيما يكتشفوا بدورهم محبة الله وقدرته.

4. موقف الكنيسة الكاثوليكية من الأنظمة الخُلقية غير المسيحية

من المسائل الكبرى في اللاهوت الخُلقي الحديث، هي مسألة تحديد ميزاته الخاصة بالنسبة للأخلاقيات الانسانية بشكل عام. وهناك من يتسائل بإلحاح عما إذا كان هناك فرق بين النظم القيمية، والمبادئ، والقواعد الأساسية؛ لبنيان هيكلية خُلقية محض إنسانية وأخرى مسيحية. ويروح الباحثون يبررون، كل بحسب التيار العامل به مواقف مؤيدة وأخرى معارضة، أما المسيحي الكاثوليكي في هذا المجال؛ ما فتئ يؤكد أن الإنسانية بشكل عام، والأديان السماوية بشكل خاص، قادرة على سبر غور الشريعة الإلهية الحقة، والشريعة الأزلية (loi éternelle)، من خلال الشريعة الطبيعية (loi naturelle) وإن نقصت أو تباينت لديها الشريعة الموحاة (loi révélée).

وبذلك تفسح المجال لاعتبار موازاة القواعد العامة، التي تصدر عن خلقية إنسانية معينة شرط ان تكون صادرة عن ذوي الإرادة الصالحة. أما الميزات المسيحية فتأتي مزدوجة الأساس: أولًا، الارتكاز، إلى جانب الشريعة الطبيعية، على الشريعة الموحاة، ليس فقط بما قد جاء في الكتب، لا بل خاصة بمن تخبر عنه الكتب؛ أي شخص يسوع المسيح. والارتكاز، ثانيًا، على النعم الأساسية، فعل الروح القدس، التي تسند وترافق هذه المعرفة.

5. خاتمة

إذا كانت الحياة الخلقية تهدف للجواب على السؤال: "ماذا يجب أن أفعل كي أرث الحياة الأبدية"[9] فإنها لا يمكنها الاكتفاء باتباع الوصايا والانغلاق على سلسلة قوانين وفرائض والزامات، بل تتعداها للغوص في معرفة الله ورؤية وجهه حيث تكون الطوبى الحقيقية. من الوصايا إلى الطوبيات قفزة نوعية تعكس تمامًا القفزة بين القديم والجديد، وكل ذلك لا لتنقض بل لتكمل[10]. ولكن ما يعني هذا فعليًا بالنسبة لهيكلية اللاهوت الخُلقي؟ باختصار نقول: إنه الانتقال من خُلقية الفرائض إلى خلقية الفضائل. فالأساس ليس باتباع الوصية هذه أو الفريضة تلك كقانون مفروض ونظام ملزم من خارج الضمير الإنساني. إنما الأساس هو تبني هذه الوصايا والفرائض على أنها الإطار الصحيح للمحافظة على علاقة البنوة مع الله الآب، وعلاقة الأخوة مع كل ذي بشر. ذلك يعني بالطبع تنمية الفضيلة في الحياة الفردية التي تسير بالمؤمن نحو كمال المحبة والإيمان.

ويبقى السؤال: كيف يجسد اللاهوت الخُلقي هذه الأيقونة لوجه الله في القواعد والفرائض العملية؟ وكيف تكتسب هذه الأخيرة معناها الدائم من الاختيار الأساس في التطلع نحو الله أو رفضه؟ وكيف تحدد الخطيئة في هذا المجال، ومتى نكون في النعمة؟ وفي الوضع هذا أو الحالة تلك من الحياة اليومية ومسائلها المعقدة، كيف يصار خُلقيًا وعلى أساس أي نُظم عملية، اتخاذ هذا القرار وليس آخر، والقيام بهذا الفعل وليس ذاك؟ كل هذه الأسئلة وغيرها كثيرة تدعونا للانتقال من اللاهوت الخلقي الأساسي وتأمل وجه الله إلى اللاهوت الخلقي الخصوصي. لكنّنا بالطبع لسنا الآن بصدد معالجة هذه الأخيرة، إنما ندعو إلى التيقن إلى هذه الروابط الجذرية بين المحور الديني الجوهري، والمحور القيَمِي الموضوعي في كل مسائل الحياة الخلقية، كي لا تنزلق هذه الأخيرة إلى مستوى حرفية الشرائع الأدبية الجامدة، قاتلة الروح والمعنى على السواء.

---

[9] متى/ 19، 16.
[10] متى/ 17، 5.